الينبوع

نظم الدكتور أحمد زكى أبى شادى

فى أواسط القرن الرابع بدأ الشعر العربى ينزل درجات ، وكان فى سقوطه يتحسن بأثواب من جمال اللفظ يوارى بها سوآته ويستر عُرَرَه ، وكان الشعراء يتعملون فى استخراج أنواع من البديع والاستعارة والمجاز والإشارة واستوفوا بذلك غاية بعيدة فى تركيب الألفاظ وترتيب الكلام . وبقى الشعر يسفل بعد ذلك حتى نجحت فى القرن الماضى طائفة من الشعراء ردَّت إليهِ شبابه ، وأعادت عليهِ جدته . إلَّا أن هذا الشعر لم يكن بالذى يرضى هذا الجيل الحاضر من الأدباء ، فخرج عليه جماعة ممن تثقفوا بآداب الأعاجم من دول أوربا فبدأت هذه الجماعة تبتدع لنفسها طريقة فى الشعر وذلك بإجادة المعانى وتحسينها وتحقيقها والتوسع فى النظر إلى أوائلها وأواخرها وتابعها ومتبوعها وعلاقاتها بالنفس وآثارها فى القلب إلى غير ذلك من الأغراض . ثم ترى بعضهم قد أهمل اللفظ واستجادته واختياره ، ولم يلقوا بالًا إلى الصيغ العربية التى لا يفهم الكلام إلَّا بها ، ولا ينعقد المعنى إلَّا عليها . وأغلب الظن أنهم يظنون أن هذه العبارة التى ينشئونها تؤدى المعنى الذى أرادوه ، فيلقون بها دون روية أو تثبت ، فإذا جاء القارىء ليفهم الكلام على عربيته لم يخرج بشىء ولا يجدى عليه إلَّا أن يتوهم مراد الشاعر توهمًا . غير أن الحقيقة التى لا ينكرها أحد أن كثيرًا من هؤلاء الشعراء قد انطوت أشعارهم على كثير من جليل المعانى ولكنهم أفسدوها بضعفهم فى البيان وقلة عنايتهم بالأساليب العربية الجميلة التى يطابقون بها بين المعنى الذى أرادوه والصور التى تنشئها هذه الأساليب فى ذهن القارىء البصير . ونحن لا نرى للشعر معنى إلَّا بهذه المطابقة بين المعنى المراد والأسلوب المتخذ أداة للتعبير عنه ، وإلَّا فإن المعانى الشعرية لا تزال قائمة فى أنفس الشعراء من أول عهد الإنسانية إلى هذا اليوم ، ولا يتقدم شاعر على شاعر إذا تساويا فى المعانى ، إلَّا بالبصيرة البيانية النافذة التى تقع بهِ على الألفاظ والأساليب التى تطابق المعانى القائمة فى نفسهِ .

---

* المقتطف ، المجلد ٨٤ ، مارس ١٩٣٤ ، ص : ٣٨٠ - ٣٨١

هذه كلمة موجزة أردنا أن نقدم بها لذكر ديوان صديقنا (الدكتور أحمد زكى أبى شادى) الذى سماه (الينبوع) . ورأيى فى شعر أبى شادى أنه جيد المعانى ، فربما أراد هذا الشاعر معنى جليلًا ولكنهُ لا يأخذ نفسهُ بالمطابقة بين المعنى الذى أراده والأسلوب الذى يعرضه فيه ، وهو يعلم ذلك فى شعره فيحتج له ويدافع عنه . ولعلّ الرافعى أراد ذلك حين قال فى كلمة سمعتها منهُ أن أبا شادى (مبتدع طريقة) . وذلك أن أبا شادى قد صار فى شعره على وحى الخاطر (كما يقولون) دون التنقيح والتصفية والاختيار وجعل هذا مذهبًا من المذاهب التى يسلكها الشعراء . وأنا لا أفتات على الرافعى فى مراده من هذا الوصف . ولكن ذكرتهُ كما سمعته فإن أخطأت فى تأويلى فذلك مِن قِبَلى لا مِن قِبَله .

هذا وقد قرأت ديوان أبى شادى الجديد فوجدت فيه نفسه بنشاطها ، وقلبه بشبابهِ ، عقله بتوثبهِ ، وعلمه بتنوعهِ ، فهو أكثر شعرائنا استخراجًا للمعانى ولأغراض المعانى . وأنت إذا أخذت أحد دواوينه أعجبك من شأنه هذا التنوع فى الأغراض التى يرمى إليها بشعره ، وهو فى هذا كثير المعانى الجيدة ، وقد تقع له الألفاظ العالية والتراكيب القوية مما يدلنا على أنه لو توفَّر على الأخذ بأساليب لغته لأخرج لنا فى الأدب العربى أدبًا باقيًا قويًّا ناضرًا جميل الظاهر والباطن .

ويجدر بنا هنا أن ننقل كلمة للجرجانى فى الوساطة فهو يقول عن نظم الشعر ونقده « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ، ترك التكلف ، ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه ، والعنف بهِ ، ولست أعنى بهذا كل طَبْع ، بل المهذب الذى قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة . وأُلْهِم الفصلُ بين الردىء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبح » . فهذه الكلمة نسوقها إلى الشعراء ، فإن الشعر إذا كان متكلفًا فى استجادة اللفظ واختيار المعانى لم يكن شيئًا ، وخير الشعر هو المرسل على سجيةٍ ، الآتى مِن طَبْع ، ولكن شرط الطبع والسجية هو هذا الذى قاله الجرجانى فى كلمتهِ ، ولو اجتمع هذا لشعرائنا لكان لنا من شعرهم فنٌّ تستروح له القلوب وترف عليه الأرواح .

* * *